

## اللفياثان

### اختراع الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة

ترجمة ديانا حرب وبشرى

صعب

مراجعة وتقديم رضوان

السيد

مشورات كلمة، ٢٠١١

عدد الصفحات ٦٨٧



كتاب اللفياثان الذي كتبه الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز سنة ١٦٥١ من المؤلفات المؤسّسة للفلسفة والعلم السياسي الحديث. في هذا الكتاب - القطيعة ينظر توماس هوبز لأسطورة السلطة المطلقة في التاريخ البشري.

من هنا نستطيع القول إن الترجمة العربية لهذا الكتاب المهم هي خطوة واعية وفي غاية الأهمية لإثراء المكتبة العربية بالنصوص المركزية المؤسّسة للفكر الحديث، هذا من جانب، ومن جانب آخر كي نتخطى الاختزال المخلّ الشائع في كتب تواريخ الفكر والفلسفة لكثير من النظريات والآراء، ولكثير من الفلاسفة والمفكرين، وبالذات توماس هوبز. فما موجود في المكتبة العربية عنه شيء يدعو للأسف حقاً، إنها مجرد مبتسرات هنا وهناك في الكتب التي تؤرخ للفلسفة الحديثة، وبالإضافة إلى شذريّتها فهي لم تكن منصفةً للرجل وفلسفته على الإطلاق. والعمل الوحيد الذي حاول أن

يصحّح هذا الخلل في المكتبة العربية هو كتاب الدكتور إمام عبد الفتاح إمام "هوبز فيلسوف العقلانية"، الصادر سنة ١٩٨٥. من هنا تأتي أهمية هذه الترجمة لكتاب هوبز لتساهم بشكل جدي في تصحيح هذا الخلل وتسدّ النقص الكبير في مكتبتنا العربية عن هذا الفيلسوف بالذات .

كلمة اللفياثان التي اتخذها هوبز عنواناً لكتابه كلمة عبرية وردت في التوراة بمعنى التنين. وهو حيوان بحري خرافي ورد ذكره في الكتاب المقدس في أكثر من موضع وبالأخص في سفر أيوب الإصحاح ٤١، وفي الترجمة العربية للكتاب المقدس توجد كلمة "تمساح"، في حين أن النسخة الإنجليزية تبقي الكلمة بلفظها العبري "لفياثان"، لكن الأوصاف الموجودة في هذا الإصحاح لا تنطبق على التمساح. على أية حال فإن هوبز كان يعنيه من التسمية أن الدولة يجب أن تكون بقوة وسطوة هذا الكائن البحري المرعب الذي يتلعب في جوفه الأفراد كلّهم.

والكتاب يتكون من أربعة أقسام أساسية. القسم الأول "في الإنسان"، والقسم الثاني "في الحكومة"، والثالث في "الدولة المسيحية"، والرابع في "مملكة الظلام". ونحن لن نستعرض هذين القسمين الأخيرين لسببين. أولهما كونهما لا يشكلان إضافة جديّة أو ذات بال لنظريته السياسية، وثانيهما لأنهما غارقان في جدل حول نصوص الكتاب المقدس وتفسيراته، وسوء التفسير والتفسير الصحيح وغيرها من الأمور الخاصة بالدين المسيحي. وفعلاً هناك من نشر كتاب "التنين"

والقوانين عقله. والوئام صحته. والعصيان أمراضه. والحرب الأهلية موته.

والعقد الذي بموجبه خُلِقَ هذا الحيوان في البداية، يشبه فعل الخلق الإلهي، حين يقول للشيء "كن فيكون". فهم قالوا "لنصنع الإنسان". فالإنسان هنا هو صانع وفي نفس الوقت مادة هذا الإنسان الصناعي-الدولة. ومن هنا رمزية العنوان الفرعي بنسخته الأصلية-المادة والشكل والقوة لدولة دينية ومدنية - والذي تخلّت عنه الترجمة العربية، دون الإشارة إلى ذلك.

يتحدث هوبز في القسم الأول من الكتاب عن الإنسان الفرد بيولوجياً، وسيكولوجياً، واجتماعياً، فيبدأ بتفسير الحس والإحساسات. وهوبز فيلسوف حسّي إلى حد بعيد، فأصل الأفكار جميعاً هو الحس، أي ما تنقله لنا الحواس، وكلّ الأفكار الأخرى مشتقة من هذا الأصل. وهنا يجب أن ندرك أهمية هذا الكلام، إذا عرفنا أن المذهب الآخر الذي تزعمه ديكرت كان يقول بجوهرانية الفكر والعقل وليس للحس إلا دور ضئيل في تكوين المعرفة. وفي فصل آخر يتحدث عن الخيال ويطبق قانون الحركة لتفسيره. فالخيال إحساس واهن، وكلاهما الخيال والحس حركة من الأشياء الخارجية إلى أعضاء الحس، والخيال عند النوم يصبح حساً، والجهل بكيفية التمييز بين الأحلام والأوهام كان السبب في نشأة الدين عند القبائل البدائية. وهوبز هنا يبدو حذراً من أن يقول جميع الأديان. يقول: في هذه الأيام نشأ من هذا الجهل في التمييز، انتشار الآراء بين الناس عن الجنيات والأشباح والعرافيت وقوة السحر.

بدون هذين القسمين الأخيرين في إنجلترا (انظر على سبيل المثال نشرة البروفسور Plamenatz , Leviathan, (Fontana, 1978).

وهوبز يبدأ كتابه بمقدمة قصيرة جداً، لكنها مهمة لأنها توضّح جوهر نظريته السياسية. وأحبّ أن أذكر هنا أن الكتاب من الضخامة بحيث لا يمكن أن نلّم كفاية بكل محتوياته في هذه القراءة، لذلك سأركز على أبرز مضامينه.

لا يخفي هوبز في مقدمة الكتاب نزعتَه المادية، فيإمكان الإنسان أن يصنع حيواناً صناعياً، لأنه يقلّد فعل الله في الطبيعة، هذا الإنسان يتركب مثلما تتركب الساعة من عجلات ونوابض، ومن الطريف أن نلاحظ أن الساعة في القرن السابع عشر كانت تمثل تعقيداً تكنولوجياً يُضرب به المثل عند أكثر من فيلسوف. إذن هناك إمكانية تقليده وخلق حيوان صناعي "روبوت" تكون له حياة صناعية ويتحرك حركة ذاتية.

لكن بإمكان الإنسان أيضاً أن يخلق شيئاً للإنسان نفسه، أي أن يخلق "إنساناً صناعياً"، وقد قام الإنسان بالفعل بخلق هذا الإنسان الصناعي، وهو "اللفيathan"، ذلك المخلوق الضخم الذي ندعوه "دولة". فالدولة ليست سوى إنسان صناعي تمّ خلقه من أجل هدف أساسي هو: حمايته والدفاع عنه. وتكون بقية أجزاء الدولة من قضاة وموظفين أعضاء في هذا الجسم الصناعي الهائل، الذي تكون روحه المحركة هي "السيادة"، فهي التي تعطي الحياة والحركة للجسم كله، في حين يشكل المستشارون ذاكرة هذا الحيوان.

هوبز في المرتبة الأولى وكميل عام لدى الجنس البشري الرغبة الدائمة التي لا تهدأ باقتناص السلطة، وهذه الرغبة لا تنتهي إلا بالموت.

وهذا الفصل أساسي لنظريته السياسية لأنه يؤسّسها على سايكولوجيا واقعية وقاسية، بعيداً عن مثالية الفلسفة اليونانية أو الوسيطة. إن الدافع لأفعال البشر هو الرغبة بشتى أشكالها: اللذة والألم. فما يكون مؤلماً لنا يصبح مكروهاً وقيحاً وشريراً، وعكسه ما نلتذ به من الأشياء تصبح خيرة وطيبة. وهناك تفاصيل كثيرة وشيقة لكثير من أنواع السلوك البشري وهو ما جعل علماء النفس في العصر الحديث يمتدحون هوبز لعمق تحليلاته وكأنه كان يؤسس لعلم النفس الحديث.

وهناك أربعة فصول مهمة هي الفصول الأخيرة من هذا القسم يتكلم فيها هوبز على حالة الجنس البشري الطبيعية ورأيه في الدين، ومفهومه للدين يشكل ركيزة أساسية لنظريته حول الدولة المدنية. فالدين، كما يراه، ناشئ من طبيعة الإنسان المتسائلة عن أصل الأشياء ونهايتها. وحين لا يدرك الأسباب الحقيقية للحوادث فإنه يفترض أسباباً حسب ما توحى إليه مخيلته. ونحن مهومون بالمستقبل وما يخبئه لنا، فيتآكل قلبنا طوال اليوم خوف الموت أو الفقر أو غيرها من الكوارث ولا نرتاح أو يخفّ قلقلنا إلا بالنوم.

إن هذا الخوف المستمر يصاحب الجنس البشري دائماً جراء جهله بالأسباب كما لو كان في الظلام. لقد خلق الإنسان الآلهة لشدة خوفه. وتبقى مسألة إلحاد هوبز موضع خلاف، فبالرغم من ماديته الصريحة،

كما نجد في هذا القسم فصلاً مهماً يعالج فيه هوبز اللغة، ومن الغريب أن نرى هوبز يذكر في هذا الفصل وكتفسير لتعدد اللغات الأسطورة المعروفة إذ عاقب الله أهل بابل لبنائهم برجاً شاهقاً يتوصلونه للوصول إلى الله، فبلبل الله ألسنتهم، وأصبح العامل في البرج لا يعرف ما يريد الآخر، وهكذا لم يكتمل البناء وبعدها تفرقوا في أصقاع الأرض المختلفة فكان تعدد واختلاف اللغات بين الشعوب والأمم.

لكن يبدو لي أنه حين يذكر هذه الأسطورة، ليس من باب الاقتناع بها أو الدعوة إليها، لأنه في نهاية الفصل يذكر أن البشر هم من اخترع اللغة. ومن الباحثين من ينظر إلى هذا الفصل كإسهام عميق في فلسفة اللغة والفلسفة التحليلية، لذا فإن أتباع هذه المدرسة المعاصرة يعدونه سلفهم المباشر، ويرون أن مساهمته هذه أهم من فلسفته السياسية، لأنه كان شديد الحذر من الطريقة التي يمكن أن تنشأ بوساطتها الأفكار والمعتقدات الخطرة بسبب الخلط في معاني الكلمات. لقد كان هوبز على قناعة بأن الفلاسفة سيقبّلون معرضين لخطر الانزلاق في الكلام الفارغ أو المبهم ما لم ينتبهوا إلى طريقة استخدام اللغة، وهو عين ما تذهب إليه المدرسة التحليلية في الفلسفة المعاصرة.

وهناك فصل عن اختلاف أساليب السلوك، يقول فيه في البداية إنه لا يعني بالسلوك لياقة التصرف مثل الكيفية التي يجب أن يسلم بها المرء على غيره أو كيف يجب عليه أن يغسل فمه وينظف أسنانه، بل يعني به الصفات الإنسانية المتعلقة بالعيش معاً في سلام ووحدّة. يضع

فإن اتهمه بالإلحاد غالباً ما كان يأتي من رجال الدين وهؤلاء اعتادوا في ذلك العصر، وربما في كل عصر، على أن يتهموا بالإلحاد كل من يخالفهم في الرأي، أو يقدم تفسيراً يخالف فهمهم الخاص للدين.

أما الفصل الذي يتكلم فيه هوبز على حالة الجنس البشري الطبيعية، وهو الفصل الثالث عشر من القسم الأول، فهو من الفصول المركزية في الكتاب، إذ أن حالة الجنس البشري الطبيعية تمثل الأساس الذي يَشِيدُ عليه هوبز باقي استنتاجاته، وحالة الجنس البشري الطبيعية هي بكل بساطة "حالة افتراضية" وليست واقعة تاريخية محددة. إن حالة الطبيعة هذه هي وصف للحالة التي لابد أن يسلك الناس على أساسها ويتصرفون تبعاً لها ما لم تكن هناك سلطة قوية تلجم هذه الغرائز البدائية. إن هوبز عندما يصف طبيعة الناس وما يملكهم من رغبة واشتهاء... الخ إنما هو يصف الطريقة التي لابد أن يسلكوا بناءً عليها، في حالة غياب السلطة، وربما وجدنا مصداقاً لكلام هوبز إذا استرجعنا المشاهد التي نراها تتكرر باستمرار وفي مختلف دول العالم، وماذا يفعل الناس حين تنهار السلطة بشكل كامل.

في حالة الطبيعة لا وجود إلا للعنف وحرب الجميع ضد الجميع. والحقيقة أن هناك افتراضاً مضمراً خلف هذا الكلام هو أن هوبز يفترض أن طبيعة الإنسان الأصلية إنما هي طبيعة شريرة وأنانية، لذا فإنه يسلك في حالة الطبيعة على وفق هذه الطبيعة، في حين أن لوك وروسو افترضوا العكس أي الطبيعة الخيرة والطيبة للإنسان في حالة الطبيعة الأولى. ويكون من الطبيعي

أنه لا يمكن الخروج من حالة الطبيعة هذه إلا عن طريق العقد وإلا كان الفناء للجميع (ص ١٣١-١٣٨).

وهذا الفصل يقودنا إلى بقية فصول هذا القسم التي تدور حول القوانين الطبيعية الناشئة من حالة الطبيعة السابقة، أي أنه يقوم بالاستنتاجات المنطقية من افتراضه الأول. فيؤكد أن "الحق بمقتضى الطبيعة" هو حرية كل إنسان في أن يستخدم قوته على وفق ما يشاء من أجل الحفاظ على ذاته أو حياته، وبالتالي في أن يفعل كل ما يرى بعقله وحكمته أنه أفضل السبل لتحقيق ذلك. لكن هذا يقودنا إلى استنتاج منطقي لا مفر منه هو: إن الإنسان الذي يريد أن يبقى في حالة الطبيعة إنما يناقض نفسه. فالخوف المتبادل الذي هو السمة المميزة لحالة الطبيعة، هو ما يدفع الناس إلى إلغاء هذه الحالة. إن "الحفاظ على الذات" هو المبدأ الأول وهو المبدأ المؤسس لنظريته السياسية، لكن كيف يمكن للناس في حالة الطبيعة هذه أن يخرجوا منها؟ الواقع أن العقل هو الذي يحتم علينا الخروج منها لسبب بسيط هو أنها تناقض نفسها بنفسها أو أنها تلغي ذاتها بالضرورة لأن المبدأ المسيطر في حالة الطبيعة هو "حفظ الذات". وهذا المبدأ ذاته قادنا إلى حرب الجميع ضد الجميع وستكون نتيجته المنطقية هي فناء الجميع وليس الحفاظ على حياتهم. إن السبب الأساسي كان الرغبة في المحافظة على الذات وهذا يعني تجنب الموت قدر المستطاع، لكن حالة الحرب الشاملة التي تصبح فيها الحياة "فقيرة وعقيمة موحشة وقصيرة الأمد" تنتهي إلى نتيجة هي عكس الهدف الذي كانت تنشده، وفي استطاعة الإنسان العاقل أن يرى أنه

ينبغي عليه أن يبحث عمّا يضاد هذه الحالة أي أن يسعى إلى السلام.

وهكذا نجد أنفسنا مرغمين إذا ما استخدمنا العقل الطبيعي الخالص على الخروج من حالة الحرب وإقامة السلام وإنشاء دولة قوية ومتماسكة نتجنب فيها عودة هذه الحالة مرة أخرى. وذلك يتطلب منا إقامة الدولة التي تشبه التين بقوتها وسطوتها والتي تعد مقاومتها ضرباً من الجنون.

وهذا هو موضوع القسم الثاني من الكتاب المسمى "في الحكومة". مهّد هوبز لفكرته عن بناء الدولة بالحديث في القسم الأول عن حالة الفوضى الطبيعية الأولى لسبب بسيط هو أن الناس كلما أدركوا النتائج السيئة المترتبة على حالة الفوضى والاضطراب تشبثوا بالقانون وتمسكوا بالنظام. إنها استنتاجات منطقية لأن هوبز يسير بنظريته سيراً منطقياً وفق منهج هندسي راسخ لأن نظريته كلها عبارة عن بناء منطقي. فهو افترض افتراضاً واستخلص منه النتائج اللازمة عنه بالضرورة

ويبدأ هذا القسم بنشأة الدولة، أي انبثاقها بالضرورة عن حالة الطبيعة الأولى، وينتهي بالعيش في ملكوت الله بمقتضى الطبيعة. ونجد في هذا القسم وحدةً وانسجاماً خلاف القسم الأول الذي لم يكن الترابط بين بعض موضوعاته واضحاً تماماً. لم يكن هوبز أول من أقام الدولة والمجتمع على أساس نظرية العقد الاجتماعي، لأنّ هناك من يرجعها إلى أبعد من الفلسفة اليونانية وتحديداً إلى المفكر الصيني "موتزو" في القرن الخامس قبل الميلاد، لكنّها عرفت أزهى عصورها في

القرن السابع عشر والثامن عشر. وهي نظرية خيالية بكل تأكيد لكنها تستخدم كمبدأ مفسر للمجتمع والدولة. وهناك شكلان لها، الأول: يتم بين الأفراد أنفسهم والثاني يتم بين الأفراد والحاكم، إن الحالة الأولى تسبق نشوء الدولة بشكل مطلق في حين أن الشكل الثاني يفترض السلطة ومن ثم العقد. وهوبز يميل إلى النوع الثاني، ومنطقياً يجب أن يفعل ذلك استناداً إلى فرضيته الأساسية في حالة الطبيعة، وعادة ما ينتج هذا النوع السلطة المطلقة في حين يميل من يفضل الديمقراطية وتعدد السلطات إلى النوع الأول.

إنّ نظرية العقد الاجتماعي وهي تقريباً تستغرق جميع فصول هذا القسم كانت إحدى الوسائل القليلة المتاحة للمفكرين الذين يسعون إلى إنكار ادّعاء الملوك بالتفويض الإلهي، وبالتالي فإنهم يحاسبون أمام الله وليس الشعب. ومن هنا كان منشأ النظام البطرياركي "الأبوي" الذي ترجع جذوره إلى العهد القديم من الكتاب المقدس. وتفسير هوبز للعقد الاجتماعي يختلف تقريباً عن كلّ الذين قالوا بنظرية العقد الاجتماعي من بعده مثل جون لوك وروسو وسينوازا، لأنّ العقد عندهم كان بين الشعب والسلطة الحاكمة وليس بين الناس قبل نشوء السلطة. ومن هنا نفهم كيف يؤسس هوبز للسلطة المطلقة بشكل منطقي لأن مقدماته تقوده إلى هذه النتيجة.

إنّه تطبيق لمنهج غاليلو (التحليلي-التركيبي)، ولكن ليس على الطبيعة هذه المرة بل على المجتمع من أجل الكشف عن المبادئ الأساسية التي يقوم عليها. ومن

ثم فهو يزعم فعلاً بتجريد خصائص المجتمع والدولة القائمة بالفعل (القانون - النظام - القضاء العدالة) وغيرها من الموضوعات التي تشكل مادة هذا القسم، ثم يعيد تركيبها من جديد بوصفها استنتاجات من مسلماته وفرضياته ومصادراته الأساسية. لذا يصبح مفهوماً لدينا تباهي هوبز بأنه أقام سلطة الحاكم وكذلك حرية المواطنين وواجباتهم على بديهيات الطبيعة البشرية، أي أنه أسس علماً جديداً، ولم يلتفت إلى التراث الأرسطي المتهافت الذي يهرع إليه من تنقصه البصيرة والفهم السليم. وكذلك لم يقدّر نظريته بالتوسل بسلطة مفارقة للطبيعة والمجتمع، أي السلطة الدينية.

### تقييم

نستطيع القول إنّ هوبز وضع في هذا الكتاب فلسفةً سياسية متكاملة، أو بكلمة أدقّ كان يأمل أن يضع نظرية سياسية تقوم على أسس راسخة بحيث تقضي على البلبلة والاضطراب الفكري الذي ساد الحياة السياسية الإنجليزية في وقته، إنه يريد أن يؤسس لـ "علم السياسة". ويمكن لنا أن نقدر محاولته بشكل أفضل إن قارناها بمحاولة مكيا فيلي الذي عاش قبل هوبز بقرن تقريباً، وهو أشهر من سبقه من المفكرين السياسيين. كان مكيا فيلي يؤكد وكما هو معروف الحقائق القاسية للقوة، وكيفية ممارستها ومتى يتم استخدامها. ويستدعي التجارب الرومانية وأيضاً التجارب الإيطالية القرية منه في الممارسة السياسية للتدليل على صحة كلامه. لا شك في أن مكيا فيلي يُعدّ أول مفكر سياسي في العصر الحديث، لأنه مثل هوبز لم يتحدث عن السياسة من

منظور أخلاقي أو ديني، بل نظر إلى السياسة باعتبارها صراعاً دينوياً ليس غير، لكن مكيا فيلي لا يشبه هوبز، لأنه لم يقدم أو يعرض فلسفة سياسية شاملة، بل قدم نصائح عملية للأمر، وما ينبغي عليه أن يفعله كي يحافظ على سلطته، وهو أمر برأيي أقل شأناً إذا ما قورن بما قدمه هوبز من نظرية متكاملة فيها أسس نظرية ومنطقية ونتائج واستدلالات، وليس مهماً إن كانت هذه النظرية صحيحة أم خاطئة، مثلما ليس مهماً إن كانت نصائح مكيا فيلي صحيحة أم خاطئة، لذا فمن هذه الناحية يعد هوبز هو المؤسس للفلسفة السياسية الحديثة، وبالرغم من أن القليل منا الآن من يقبل أطروحته، حول السلطة غير الخاضعة للمساءلة، لكننا مازلنا نعيش في ذات العالم الذي توجه إليه هوبز بنظريته. أي العالم الذي مازالت فيه إشكالية السلطة والمجتمع قائمة، وما زالت فيه السلطة بحاجة إلى نوع من التبرير، عالم لم تزل فيه السلطة الدينية تطرح إشكالية جدية. إنه كان يريد أن يضع نظرية راسخة في السياسة، كجزء من مسؤوليته كمفكر في القضاء على الاضطراب السياسي في بلاده، لأنه اعتقد أن هذه الاضطرابات كانت تقوم على سوء فهم فكري ولا سبيل للقضاء عليه إلا إذا توصلنا إلى أفكار يقينية واضحة بحيث لا يختلف حولها اثنان (يردد هوبز هنا قاعدة اليقين لدى ديكرارت)، وحينها نكون على ثقة من القضاء على هذا النزاع والوصول بالمجتمع إلى الاستقرار أو إعادة السلام للجميع.

الدكتور باقر إبراهيم الزبيدي